مطبوعات شرقية

تاريخ الآداب المسيحية العربية

لمؤلفه جورج غراف

وصف وتحليل بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

G. Graf. — *Geschichte der christlichen arabischen Literatur.* Erster Band, *Die Uebersetzungen.* (Studie Testi, 118). Zweiter Band, *Die Schriftsteller bis zur Mitte des 15. Jahrhunderts.* (Studi e Testi, 133). Dritter Band, *Die schriftsteller von der Mitte des 15. bis zum End des 19. Jahrhunderts, Melchiten, Maroniten.* (Studi e Testi 146). Vierter Band, *Die Schriftsteller von der Mitte des 15. bis zum Ende des 19. Jahrhunderts, Syrer, Armenier, Kopten, Missionsliteratur, Profanliteratur.* (Studi e Testi 147). In-4°, XLIV-662. XXI-512; XXXIII-525; XXXVI-338 pp. Citta del Vaticano, Bibl. apost. Vaticana, 1944, 1947, 1949, 1951.

الابحاث والنصوص

في دار الكتب الفاتيكانية حركة نشر وتأليف بدأت مع هذا القرن وتواصلت الى يومنا بعنوان « الابحاث والنصوص » Studi e Testi صادرة من مدينة الفاتيكان ومن المكتبة الرسولية الفاتيكانية فانتجت سلسلة من الكتب بحجم ٢٥×١٨ ستتمرًا ومنها هذا المؤلف : تاريخ الآداب المسيحية العربية بقلم الكاهن الفاضل والعامل الكبير جورج غراف الدكتور بالفلسفة واللاهوت والاستاذ شرفاً لمعهد اللاهوت في كلية مونيخ والعضو المراسل لجمعية الآثار القبطية في القاهرة .

وأهدي الكتاب الى المشرق منذ ظهور مجلده الاول فارجأنا وصفه الى ان وصل الينا مجلده الرابع وفيه ختام البحث اما المجلد الخامس الذي سيليه ولم يزل تحت الطبع فيُخصص بالفهارس .

نشأة الكتاب وغرضه في فكر المؤلف

قال المؤلف في المقدمة ان اطلاعه على منشورات جامعة القديس يوسف في

بيروت وخاصة على مجموعة مجلة المشرق التي ظهرت منذ ١٨٩٨ بحث فيه الرغبة بدرس موضوع كتابه هذا فاخذ يجمع في سبيله المواد من ابحاثه الشخصية فيما كان يتعلم على فريتز هومل في جامعة مونيخ فاثمرت من ثم جهوده برسالتين طبعها سنة ١٩٠٥ وعنوان الاولى «الآداب المسيحية العربية الى عهد الصليبيين» (آخر القرن الحادي عشر) والثانية «لغة الآداب المسيحية العربية القديمة» فكانت الاولى اساساً للبناية الفخمة التي ظهرت في هذا الكتاب الجليل.

لقد تكبد صاحبه مشقات الاسفار في التفتيش على المخطوطات وفي مراجعة المصادر فاقام زماناً في بلاد الشرق في اورشليم وبيروت وحلب وفي ديورة لبنان وخاصة في القاهرة وذلك في ١٩١٠ — ١٩١١ وبين ١٩٢٦ — ١٩٣٢ وفي ١٩٣٦. وزار باريس وفلورنسا وروما مترددًا على مكاتبها فضلًا عن مكاتب المانية. وكان اذ ذاك في الخدمة الرعائية. ولما رُفع حملها عن كتفيه انصرف الى استغلال ما جمعه من التعليقات والمواد وخصص ايامه لهذا التأليف.

وان هذا الكتاب موضوع اولًا لاهل الاختصاص من العلماء الشرقيين والمستشرقين ولكنه مفيد ايضاً لكل من يهمهم الاطلاع على الدروس الكنائسية الشرقية وقد افتتحها المؤلف بمقدمة واسعة في بدء المجلد الاول من كتابه وددنا لو وفق الى تعريبها بكاملها احد ادبائنا المتضلعين من اللغة الالمانية على اننا نعرض لأهم محتوياتها قبل ان نأتي على تحليل كل من المجلدات الاربعة التي بين يدينا.

خلاصة المقدمة: الادب المسيحي العربي

ان المكان الذي نشأت وتطورت فيه الآداب المسيحية العربية هو الجزيرة العربية ثم في البلاد الخارجة عنها اما زمانها فيمتد من عهد اول ظهورها في القرون الخوالي الى يومنا هذا.

وذهب المؤلف في تحديد معنى الادب المسيحي العربي باعتبار مصادره ومواده فقال: (١ ص٢ — ٦): في اعتبار المصادر يكون الادب المسيحي العربي مجموع ما وضعه العرب المعروف عنهم انهم مسيحيون سواء يكونهم من اصل عربي ومن قبيلة عربية او بكونهم استعملوا اللغة العربية فمن ثم تدخل

في تاريخنا الكتب التي لا علاقة لها بالدين من شعر ونثر واساطير وقصص وتاريخ وعلوم طبيعية وغير ذلك .

اما في اعتبار المواد فيشمل الادب المسيحي العربي مجموع ما كتب باللغة العربية وكانت غايته في الغالب دينية وهي مع ذلك تعالج مواضيع غير دينية وقد يكون بعيداً عن الصواب ان نعزل عن تاريخ الآداب المسيحية العربية ما وضعه المسيحيون من المؤلفات التي لا علاقة لها بالدين طالما اعتبرها المسلمون ذاتهم كمسيحية نسبةً الى اصحابها ودونوها باسم المسيحيين كتب تاريخ الادب العربي المشبع بالمواد الصادرة من مصادر اسلامية والحاوية المواضيع الاسلامية

وضمن المواضيع الواجب اعتبارها مادة لتاريخ الادب العربي المسيحي ما كان مبعثاً للبحث ومقبساً للنور في تطور الحركة الفكرية العربية ومنها نشأ علم الكلام والكتب الموضوعة في الجدل بين المسيحيين والمسلمين فكانت منهجاً سار فيه اللاهوتيون والفلاسفة العرب متأثرين بالتراث الفكري المسيحي ليفتحوا فتوحاتهم العقلية . وفي المجلدات الاربعة التي ظهرت سوف يجد القراء الاشارات الوافرة الى المراجع العديدة جداً التي استند اليها المؤلف وجاءت شاهداً على حسن اختياره موضوعه وعلى طول باعه في العمل بقوة وصدق ونجاح.

انتشار العربية بين المسيحيين

ومن امهات المسائل كيفية ابتناق المسيحيين من سريان ويونان واقباط وحبشة لغة الفاتحين العرب وكيفية حياة وتطور اللغة العربية بين المسيحيين في البلاد التي سادها الاسلام .

ومن اول مظاهر العربية عند النصارى اتخاذ اعلام الاسر والاشخاص من كلمات عربية اسوة بالعرب فقالوا مثلاً عيسى عوض يسوع واستعملوا التركيب والكنية واللقب اسوة بالعرب فقالوا عبدالله وابو الفتح والجميل والمكين وابو قرة وابو البركات .

ودخلت اللغة العربية في استعمال الصلوات والرتب الطقسية في الكنائس فنقلوا اليها المواد من اليونانية والسريانية والقبطية ، وفي الزمان القريب منا ، من اللغات الاوروبية . فحفظوا لنا تراثاً لا يستهان به من الروحيات الراجع

عهدها الى اوائل المسيحية فضلاً عما ابتكروه بالعربية من منتوجات عقولهم.

العربية الفصحى

وظهرت في هذه المؤلفات اللغة العربية على علاتها كما كانت في استعمال العامة في زمانها ومكانها لكنها بلغت ايضاً مستوى اللغة الفصحى المراعية حقوق الصرف والنحو فليس من الصواب في القول ان لغة المسيحيين كانت دون لغة المسلمين فصاحة لانهم كتبوا كما كان يكتب سائر العرب في ايامهم وترى بان في قوله هذا رد العلامة غراف على المثل السائر عند الذين ينكرون على المسيحيين المقدرة في ضبط قواعد العربية فيقولون متهكمين : « النصراني اذا نحّى ».

اقدم الآثار المسيحية العربية

مضى صاحب الكتاب واضعاً خطط تاريخ وجغرافية البلاد التي ظهرت فيها الآداب المسيحية العربية قبل الاسلام اخذاً في بدء تاريخ المسيحية في بلاد العرب من العهد الروماني فقال (١ — ص١٢ وما بعدها) : ان العدد الوافر من البنايات الكنائسية في المدن والارياف وغير ذلك من الكتابات الاثرية المؤرخة او الغير المؤرخة شاهد يعرّفنا بتراكز الاساقفة وغيرهم من الاكليروس على مختلف درجاته وكانت الارثوذكسية مذهب الدولة وكانت مذاهب غيرها تسعى في ان يكون لها مقام في البلاد ...

اصل الحضر

وكان السكان معظمهم من اصل روماني او يوناني او سرياني وكان التفوق بينهم لليونان في الحياة الاجتماعية والفكرية . وعاش العرب في الارياف واخذوا يتحضرون . ورجال الدين كانوا ينشرون الثقافة اليونانية على قدر ترقيهم في درجات الاكليروس فتيتوس (نحو سنة ٣٦٣) وانثيباتر (نحو ٤٦٠) واسطفانوس (في بدء القرن الثامن) اساقفة بصرى كتبوا باليونانية . ودخل اقليم « عربية » في حكم الاسلام بعد انتصار الفاتحين في موقعة اليرموك (٢٦ آب ٦٣٦) وعمرت بعض الكنائس ولم يحل دون عمارتها دخول البطريركية في حكم الشريعة التي قالت بمنع اهل الذمة عن عمار الكنائس .

اهل الوبر

وبالقرب من العرب المتحضرين كان البدو وعليهم امراؤهم من حيرة وغسان وهم « الفلاركة » وقد دخلت بينهم الثقافة المسيحية مع اتصالهم بملوك بيزنطية والحبشة وبفضل الرهبان المبشرين من رحالة او من شخصيات بارزة كسمعان العمودي .

وضرب الاستاذ غراف لائحة القبائل العربية المتنصرة بجملها او بفئة منها واهمها (ا ص٢٥—٢٧) ١) قراعة وفروعها سليم وكلب وتنوخ ٢) جذام ٣) تغلب ٤) بكر ٥) اياد ٦) تميم ٧) الحارث بن كعب ٨) كندة وحدد مواطن اقامتها في البلاد واخذ من ثم يفتش عن اوليات الاثار الادبية المسيحية العربية .

ليس بين ايدينا اثر للكتابة للقبائل العربية المسيحية الرحالة الا ما حفظ في الديورة وفي حلقة الاكليروس المثقف اما المحررات التي بلغت الينا من المنتوجات الفكرية الصادرة من المتحضرين فلم تكن باللغة العربية ولكن باليونانية وكانت الحركة الفكرية نشيطة في الديورة الواقعة في بلاد الحيرة وغسان ومنها صدرت مخطوطات وآثار كلها باللغة الآرامية الى ان حلت فيها اللغة العربية محلها مع انتشار الكتابة العربية على يد المسيحيين كما يشهد على ذلك المؤرخون المسلمون .

شعراء النصرانية

وهناك مشكلة الشعر الجاهلي وشعراء النصرانية قبل الاسلام . فلم يوافق العلامة غراف الاب شيخو في سائر اقواله اثباتاً لنصرانية الشعراء لان قصائدهم بقلبها وقالبها لا تكاد تتميّز عن قصائد غيرهم من الشعراء غير المسيحيين ولا يكفي ما يرى فيها من الاشارات الى الطقوس المسيحية او ما يأتي فيها من الاصطلاحات اللغوية المسيحية لاثبات ان اصحابها كانوا من النصارى .

اما الشعراء المسيحيون اي هؤلاء الذين لا سبيل الى الشك في حقيقة ديانتهم استنادًا لشواهد غيرهم عنهم او اخذًا بصيغة اسمهم وقد عاشوا قبل الاسلام وفي قرنه الاول فهم : عدي بن زيد وكان من اسرة نبيلة نشأ في بلاط ملوك الحيرة ثم مات نحو ٦٠٤ وله شعر في الخريات والزهديات ؛ ويحيى ابن متى معاصر محمد لم يترك شعرًا من تأليفه لكنه روى شعر الاعشى الاكبر

(بعد سنة ٦٢٩ م) وهذا كان من « عباد الحيرة » ؛ وعبد المسيح بن بقيلة الذي عاش في الحيرة في القرن السابع والاخطل التغلبي شاعر الامويين المتوفى سنة ٧١٥

تعريب الكتب المقدسة

ومضى المؤلف من ثم باحثاً في ترجمة الكتاب المقدس والصلوات الطقسية الى اللغة العربية وعالج المشكل بكثير من الاطلاع والنقد فاذا ذكر ورقة بن نوفل وما قاله عنه المؤلفون المسلمون انه قرأ التوراة بالعبرانية فسر لفظة عبرانية بمعنى انه قرأ التوراة بحرف عبراني او كرشوني وبلفظ ولغة عربية . واذا روى خبر عمر بن سعد بن ابي وقاص وطلبه الى البطريرك يوحنا اليعقوبي في ان يترجم التوراة من السريانية الى العربية استند اليه ليبين انه كانت في ذلك العصر آثار عربية للكتاب المقدس لكنه لم يبت في امرها واكتفى بان وجه اليها نظر الباحثين مسهلاً لهم طريق البحث بذكر مراجع علمية وافرة وكذلك فيما يخص كتب الصلوات الطقسية فروى نظرية بارمستوك في قوله ان كتباً دينية مسيحية سبقت ظهور القرآن لكن امرها لا يتضح اتضاحاً يجزم في تعريف كمية المواد المعرّبة .

ولا بد من القبول بالرأي القائل بانه لما ظهر القرآن كانت بين ايدي الناس قطع معربة من الكتاب المقدس ومن كتب الصلوات والطقوس وذلك بيّن في بعض الالفاظ الواردة في القرآن وفي بعض النصوص التي يرويها البخاري والطبري وغيرهما .

اضف الى ذلك ما يأتي به من الشواهد المؤلفون المسيحيون كابي قرة الملكي وابي رائطة اليعقوبي والكندي النسطوري فاذا قابلت بين مؤلفاتهم رأيت انهم يختلفون في رواياتهم آيات الكتاب المقدس فينتج من ثم انه لم يكن هناك ترجمة عربية للكتب المقدسة مقبولة من الجميع قبل القرن الحادي عشر المسيحي .

خلاصة التاريخ وتقسيم الكتاب

وفي البند الخامس من المقدمة جاء المؤلف بخلاصة تاريخ الشرق السياسي منذ الهجرة الى آخر عهد المماليك ثم اخذ يعرض لتاريخ الادب عند الطوائف

المسيحية الملكيين و الموارنة والنسطوريين واليعاقبة والاقباط وختم مشيراً الى اقسام كتابه فتناول اولا ما نقل الى العربية عن غيرها من اللغات ثم المؤلفات المبتكرة للكتبة منذ القرون الاولى الى منتصف القرن الخامس عشر . ثم في القرن السادس والسابع عشر ظهر عصر النهضة في الآداب المسيحية العربية وكان فجره في العلاقات التي جرت بين مسيحيي الشرق والغرب في مجمع فلورنسا وفي اعمال المرسلين واجتهاد الشبيبة الشرقية التي رحلت من بلادنا الى رومة لتدرس فيها .

واليك نظرات سريعة في محتويات المجلدات الاربعة عسى ان ينشوق منها القراء الى مراجعة الكتاب واستيعاب مواده بتمامها .

المجلد الاول

يحوي البحث في ترجمة الكتاب المقدس بكماله من القرن التاسع من عهد حنين بن اسحاق الى النسخة الملكية فالقبطية الى نسخة باريس ولندن فترجمة البروباغنده وترجمة ووفائيل التوخي القبطي فالمطبعة البروتستنتية فالدومينيكانية فاليسوعية . ثم يتكلم على كل سفر من اسفار العهد القديم والجديد وعلى كتب القراءات ثم على الكتب الروحية « المنحولة » المعروفة « بالابوكريف » عن اخبار المسيح والقديسين ثم على كتب الآباء اليونان والسريان والقبط وعلى كتب الطقوس والليتورجيات وعلى كل فصل من هذه الفصول قدم المؤلف بالنظرات العامة قبل ان يأتي على ذكر المؤلفات من مطبوعة او غير مطبوعة .

المجلد الثاني

فيه تاريخ المؤلفات المبتكرة التي وضعها الكتبة المسيحيون الى منتصف القرن الخامس عشر وقد صنفهم العلامة غراف بحسب طوائفهم فالملكيون ومنهم تيودورس ابو قرة وقسطا بن لوقا ويوحنا بن البطريق واغابيوس محبوب بن قسطنطين وابراهيم بن يوحنا الانطاكي وابو الفتح عبدالله بن الفضل وغيرهم ؛ والموارنة ومنهم قيس وتوما كفرتاب وتيودوروس العاقوري ويوحنا الناسك واغناطيوس اسقف قبرس ويوحنا مارون ؛ والنساطرة ومنهم اسرة بختيشوع وحنين والحجاج وعيسى بن حكم مسيح وابو زكريا يوحنا بن بطريق وابو نوح الانباري واليا

الجوهري وعبد المسيح الكندي وابو الفرج عبدالله بن الطيب العراقي والمختار يوانس بن بطلان وغيرهم ؛ واليماقبة حبيب بن خدمة ابو رائطة وابو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني وابو نصر يحيى بن جرير وغريغوريوس ابو الفرج ابن العبري ؛ والاقباط ساويروس بن المقفع ومرقوس بن القنبر وميخائيل الضياطي والرشيد ابو الخير بن الطيب والمكين جرجس بن العميد وكيرلس ابن لقلق ويوحنا اسقف سمنود واولاد العسال وغيرهم من العشرات الذين لا يسع المقام ذكرهم .

المجلد الثالث

وفيه ذكر الكتبة من منتصف القرن الخامس عشر الى منتهى القرن التاسع عشر وهو مكتظ بالاعلام القريبة عهداً منها ونستأنس بتلاوتها على مختلف الطوائف في سائر نواحي التأليف بين التعريب والابتكار فمن الملكيين ملاتيوس كرمه الحموي ومكاريوس بن الزعيم ويولس الحلبي واثناسيوس دباس والياس فخر وعبدالله زاخر ونقولا الصايغ وجرمانوس آدم وغريغوريوس عطا وغيرهم وغيرهم .

ومن الموارنة جبرائيل ابن القلاعي وجرجس الاهدني وسركيس السمراني وموسى العنايني ويوحنا الحوشبي واسطفانوس الدويهي ويوسف بن جرجس الباني وبطرس التولاوي وعبدالله قرألي وجرمانوس فرحات والسماعنة وغيرهم من تلذ القارئ مطالعة اسمائهم مع ترجماتهم وتعداد مؤلفاتهم وفيها ما يذكر بآية الانجيل عن الجدد والعتق .

المجلد الرابع

وفيه ذكر السريان : اغناطيوس نوح وعيسى الهزار واندراوس اخيجان واثناسيوس سفر وميخائيل جروه ، ثم الارمن : مكرديج الكسيح وانطون خانجي ويولس بليط ، ومن الناطرة يوسف الثاني البطريرك وخضر الموصلي ، ومن الاقباط سلسلة من رجالات العلم والفضل حسبنا الاشارة اليهم بالاجمال وكذلك

الى امثالهم من المرسلين الفرنسيسكان واليسوعيين والكرمليين واللعازريين وغيرهم من رجال الارساليات البروتستنتية ومن الكتبة والمؤرخين والشعراء واللغويين وحملة الاقلام في عالم الصحافة .

فكانت العربية نصرانية قبل اسلامها

وقد يأخذ منك الاعجاب مما تراه في هذه المجلدات الجليلة الضخمة من التعليقات والابحاث الدالة على جهاد متواصل على مدى حياة قضيت في التفتيش والتحبير والتدوين وكل صفحة من صفحاتها تكاد لا تخلو من الحواشي الدالة على المراجع والشاهدة على صدق الرواية اضف الى ذلك الاصابة في الحكم والتوازن في التعبير مما يرتاح اليه القارئ .

فهذا الكتاب بحر جدير بان يغوص في اعماقه المشتغلون في هذه الناحية من الآداب العربية فيحصلون منه على لآلئ غالية الثمن ويستنبطون من غناه كنوزاً تؤدي مادة لعمل المجتهدين على مدى الاعوام . هو تراث اجدادنا المسيحيين نفاخر به ونزد به قول من قال « ابت العربية ان تتنصر » فانها كانت مسيحية قبل اسلامها ولم تزل .

ولا يسعنا في الختام الا ان نذكر مع كتاب تاريخ الآداب المسيحية العربية لتراف كتاب تاريخ الآداب العربية لبروكلمان فمن كليهما تتكون مجموعة اساسية تشيد بامجاد الثقافة العربية وتستحق لمؤلفيها الشكر ما دامت اعلام الثقافة خافقة على الناطقين بالضاد .